﴿المحاضرة - 04 - الرابعة﴾

بواكير الأدب الجزائري بعد الفتح الإسلامي
الأدب الجزائري في عهد الدولة الإدريسية

عناصر الدرس

1- تاريخ الدولة الإدريسية
2- العلويون في المغرب الأوسط
3- الأدب الجزائري القديم في ظل الدولة الإدريسية

1- تاريخ الدولة الإدريسية:

الأدارسة (172 - 364هـ، 788 - 974م) أسسها إدريس بن عبدالله، من أحفاد الحسن بن علي ابن أبي طالب، كان قد التحق بالمغرب الأقصى بعد نجاته من واقعة فخ سنة 169هـ، 785م. وهناك التفّت حوله بعض القبائل فأعلن إمارة شيعية مستقلة عن القيروان سنة 172هـ. ويُعدّ ابنه إدريس الثاني (193 - 214هـ) المؤسس الحقيقي لهذه الدولة ولعاصمتها فاس. وقد انقسمت بعده بين أبنائه العشرة ثم استعادت وحدتها في عهد الأمير يحيى (221 - 234هـ) لتنقسم بعده، فبقيت كذلك إلى أن استولى الفاطميون على المغرب الأقصى سنة 310هـ، 921م. وقضى الأمويون بالأندلس على ما بقي من أثر الأدارسة في الجبال المتاخمة لطنجة سنة 364هـ، 974م. وقد كان لدولة الأدارسة دور في نشر الإسلام واللغة العربية بين قبائل البربر بالمغرب الأقصى[1].

2- العلويون في المغرب الأوسط:

"لما أسس ادريس دولته بالمغرب الأقصى، توجه نحو المغرب الأوسط كي يفتح لدولته طريقا الى المشرق.. فزحف منتصف رجب سنة 173هـ في جموع مطغرة وغيرهم. ونزل على تلمسان. وصاحبها يومئذ محمد بن خزر. فأطاعه وسلم له المدينة. فدخلها من غير حرب. وأقام بها أشهرا. بنى بها المسجد الأعظم. وكتب على منبره: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم. وذلك في صفر سنة 174"، قال ابن خلدون: "ولم يزل اسمه محفوظا في صفح المنبر لهذا العهد".

أخذت زناتة بدعوة ادريس وتبعتها مغيلة. وحاربوا لها الرستميين وغيرهم. وقامت قيامة هرون الرشيد لما بلغه خبره. وقال: "تلمسان باب افريقية. ومن ملك الباب يوشك ان يلج الدار". فأوعز الى أمراء القيروان بحربه. فحاربه روح بن حاتم من غير طائل وهم بعده الفضل ابن روح بحرب المغرب الادريسي. فلم يطعه الجند. وكثر تمرد الجند على الامراء. واستشار الرشيد وزيره يحي البرمكي. فأشار عليه بارسال داهية يتحيل في اغتيال ادريس. فاختار الشماخ الذي تحيل حتى توصل الى سم ادريس. "ورب حيلة أنفع من قبيلة".

ولحق بادريس اخوه سليمان. وكان ممن حضر وقعة فخ ونجا على الصحيح. قال البكري: "قال علي النوفلي أخبرني عيسى بن جنون قاضي ارشقول لادريس بن عيسى (من

بني سليمان)، ودخل الاندلس غازيا، ان سليمان بن عبد الله دخل المغرب أيضا. ونزل تلمسان". وقال ابن خلدون: "لحق سليمان بجهات تاهرت بعد مهلك ادريس. فطلب الامر هنالك واستنكره البرابرة. وطلبه ولاة الاغالبة. فكان في طلبهم تصحيح نسبه (لدى البربر) ولحق بتلمسان. فملكها واذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هناك".

ولما هلك سليمان خلفه ابنه محمد. وكبر ابن عمه ادريس الاصغر. فانصلت ايديهما. ونهض ادريس الى تلمسان سنة 199 وحارب المخالفين عليه من نفزة وبقية الصفرية. وبلغ شلفا وما وراءه الى بلاد صنهاجة. وألفى جامع والده قد انصدع فرممه. وأصلح منبره. نقل ابن أبي زرع عن عبد الملك الوراق انه قال: "دخلت تلمسان سنة 255 فرايت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك مكتوبا فيه: هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم في شهر المحرم سنة 199".

أقام إدريس بتلمسان ثلاث سنوات. ثم اصطلح مع ابن الاغلب وعينت الحدود بينهما بوادي شلف. وعقد على المغرب الاوسط لابن عمه محمد بن سليمان. وكر راجعا الى عاصمته. واستقر محمد بعين الحوت من ناحية تلمسان. وتوفي بجبل وهران. وترك أبناء اقتسموا مملكته. وسنفرد لممالكهم فصلا. وافلت من وقعة فخ ايضا داوود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب. ولحق ببني عمه بالمغرب. وحضر مع ادريس الاصغر بعض وقائعه مع الخوارج. قال البكري: "وانصرف داوود الى المشرق. وبقيت ذريته بفاس. وبنو ادريس يناكحونهم".

ومن بني جعفر هذا اخي عبد الله الكامل رجال نزلوا متيجة وملكوها. ولحق بالمغرب ايضا من العلويين الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ونزل مدينة هاز القريبة من المسيلة. وكانت له من تلك الجهات مملكة. قال البكري: "وكان له من البنين حمزة وعبد الله وابراهيم واحمد ومحمد والقاسم. وكلهم أعقب وعقبهم هنالك". واذا نظرنا الى الممالك العلوية من بني محمد بن سليمان وبني جعفر وبني الحسن الفروع الثلاثة التي نزلت المغرب الاوسط وجدناها تمتد على السواحل من أرض الريف غربا الى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقا. وغرضنا الآن معرفة مملكتي هاز ومتيجة[1].

3- الأدب الجزائري القديم في ظل الدولة الإدريسية:

كانت الدولتان الرستمية والإدريسية متعاصرتين، ولكننا "لا نعرف عن العلاقة الرستمية الإدريسية في المجال الثقافي إلا ما كان من الشاعر التيهرتي بكر بن حماد الذي مدح بعض الحكام الأدارسة"[2]. ومنهم الأمير أبو العيش عيسى، الذي كان له ولبنيه مدينة

تلمسان، وما والاها، مثل: زواغة، ونفزة، ومغيلة، وغيرها. وكلها مدن مغربية قديمة؛ وقد نالها أبو العيش بالسيف والحرب تلو الحرب.

ولما كان الأدارسة من نسل علي، وكان علي قد استشهد على يد عبد الرحمن بن ملجم طعنا، وكان ابن عم رسول الله - ﷺ -، فقد اكتسب الأدارسة تعاطفا عظيما من المغاربة، إلى درجة أن تركوا بيعة العباسيين وبايعوا إدريس وساندوه. "ولم يكن في بني إدريس مَنْ شُهِرَ بالعلم (..) إلا أحمد الأكبر بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهو المعروف بالكرتي، وكان له علم وقدر بالمغرب، وهو الذي استجلب بكر بن حماد"[1].

وحسب رواية البكري، فإن الشاعر بكر بن حماد كان عزيز النفس، لم يطرق أبواب بلاطات الأدارسة، بل هم الذين طلبوه. فلما جاءه الرسول اشترط لوازم السفر وثيابا ومالا؛ "فبعث إليه (أحمد بن القاسم) بغلة سنية وصلة جزلة، وكان له فيه أمداح كثيرة"[(2)]. غير أنه لم يصلنا من مدائحه فيهم غير مقطوعتين. قال بكر بن حماد في الأولى؛ يمدح أحمد بن القاسم المذكور[(3)] حاكم مدينة كرت[(4)] بما نصه:[5]

إن السماحة والمروءة والندى ... جمعوا لأحمد من بني القاسم
وإذا تفاخرت القبائل وانتمت ... وافخر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيار في درج العلا ... وعلي العضب الحسام الصارم
إني لمشتاق إليك وإنما ... يسمو العقاب إذا سما بقوادم
فابعث إلي بمركب أسمو به ... علي أكون عليك أول قادم
واعلم بأنك لن تنال محبة ... إلا ببعض ملابس ودراهم

والظاهر أنّ بكر بن حماد مدح ممدوحه على أساس خلقي، ونسب إليه الجود، وكل الآداب النفسية التي تحمل صاحبها على محاسن الأخلاق وجميل العادات، والفضل والخير والسخاء. ولعل هذا أساس التفاخر في الإسلام، كما قال الحق -ﷻ-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [1]. خاصة إذا كان التفاخر على مستوى الفرد. فإذا كان على أساس العرق والنسب، فإنَّ نسب الممدوح إلى الرسول محمد وابنته فاطمة وجعفر الطيار[2] فلا مكان للطعن فيه. ويُحسِن الشاعر التخلص من المدح ليدخل باب الطلب.

وما كان من الأمير إلا أن استجاب له، لمعرفته بقدر بكر ومكانته، فإن بكر بن حماد قد طاف شرقا وغربا، وجالس الملوك العظام وأطربهم وأشْهرَهم في الآفاق.

ثم قال بكر بن حماد في مقطوعته الثانية؛ في مدح أبي العيش عيسى بن إدريس[3] أمير مدينة جراوة[4] ومؤسسها[5]:

سَـــائِلْ زُوَاغَـــةَ عَـــنْ طِعَـــانِ سُـــيُوفِهِ وَرِمَاحِـــهِ فِـــي الْعَـــارِضِ الْمُتَهَلِّـــلِ
وَدِيَـــارَ نَفْـــزَةَ كَيْـــفَ دَاسَ حَرِيمَهَـــا وَالْخَيْـــلُ تَمْـــرَعُ فِـــي الْوَشِـــيجِ الـــذَّبَّلِ
غَشِّـــى مَغِيلَـــةَ بِالسُّـــيوفِ مَذَلَّـــةً وَسَـــقَى جَـــرَاوَةَ مِـــنْ نَقِيـــعِ الْحَنْظَـــلِ